الفصل الثامن

الإجراءات الإسرائيلية في تهويد الأرض

اتخذت إسرائيل والحركة الصهيونية من قبل إجراءات كثيرة ومتنوعة من أجل تهويد فلسطين والقضاء على الوجود الفلسطيني أو تحجيمه إلى مجرد أفراد يبحثون عن لقمة الخبز. تمثل الهدف الصهيوني في إقامة وطن قومي لليهود على أرض واسعة من سوريا سبق أن تم توضيحها بخريطة قُدمت لمؤتمرات عالمية عدة منها مؤتمر سانت ريمو، وعلى أن يكون وطنا خاصا لليهود لا تنازعهم فيه أي قومية أخرى. لم يحصل اليهود على مساحة الأرض التي كانوا يطمحون لها، ولم يتمكنوا أيضا من تصفية الوجود العربي في فلسطين الانتدابية. ولهذا كرسوا جهودا ضخمة في الأرض المحتلة/48 والمحتلة/67 لتهويد الأرض والمحافظة على وطن لقومية واحدة فقط. اتخذوا إجراءات كثيرة جدا يختصرها هذا الكتاب فيما يلي:

الأرض المحتلة/48

سعت الصهيونية بالتعاون مع الانتداب البريطاني وكما شُرح سابقا إلى شراء الأرض أو السيطرة عليها لإقامة المستعمرات والمزارع والمنشآت المختلفة. مكنتهم بريطانيا بوسائل مختلفة من الاستيلاء على الأرض ومن الهجرة إلى فلسطين ومنحتهم مختلف الامتيازات لتسهيل إقامة الوطن القومي. استمرت الجهود بعد قيام دولة إسرائيل بتركيز على ما يلي:

أولا: إقامة الحكم العسكري وإخضاع الناس لجو من الرعب والخوف لمنعهم من التكتل والدفاع عن حقوقهم. نسبة قليلة من الفلسطينيين أصرت على البقاء في المحتل/48 وكان من المخطط الإسرائيلي محاصرتهم والتضييق عليهم. وقد عمدت إسرائيل إلى تجنيد العملاء والجواسيس من أجل تسهيل السيطرة من خلال سيل المعلومات التي ترد حول مختلف النشاطات، ومن خلال غياب الثقة بين جمهور الناس. منعت إسرائيل حرية الحركة في السنوات الأولى لإقامتها، ومنعت النشاط السياسي والتجمعات وإنشاء الجمعيات، الخ. فقط هو الحزب الشيوعي الذي كان يتنفس بعض السياسة والذي ساهم إلى حد كبير في الدفاع عن الهوية في مواجهة الهجمة الإسرائيلية.

ثانيا: عمدت السلطات الإسرائيلية على محاصرة القرى والمدن العربية من خلال مصادرة مساحات واسعة من الأراضي واعتبار مساحات أخرى أملاك غائبين. صادرت مساحات بحجة الأمن وحرمت الناس من التمدد في العمران حتى اضطرتهم مع ضيق المساكن إلى البنيان غير المرخص والمهدد دائما بالهدم. أثارت هذه القضايا الناس بحيث تداعوا إلى احتجاج واسع عام 1976 كان مركزه سخنين في الجليل التي عانت من مصادرة الجزء الأكبر من أراضيها. حصل الاحتجاج في 30/آذار، مارس وسقط خلاله ستة شهداء، وأصبح هذا التاريخ معروفا بيوم الأرض الذي يتم إحياؤه سنويا في مختلف أنحاء فلسطين وفي مخيمات الشتات.

ثالثا: عملت إسرائيل على تمزيق الفلسطينيين إلى قوميات عربية ودرزية وشركسية، وإلى مسلمين ومسيحيين وإلى مذاهب سنية ودرزية وغير ذلك. فصلت الدروز عن باقي العرب

والمسلمين وفرضت عليهم الخدمة العسكرية الإجبارية وصنعت لهم أعيادا خاصة. وأغوت بعض القبائل البدوية في الجليل والنقب بالمال وجندت عددا من أبنائها في صفوف الجيش وحرس الحدود.

رابعا: جهدت إسرائيل في تجهيل الناس من خلال برامج تعليمية صهيونية تفصل العربي عن تاريخه العربي والإسلامي ومن خلال جعل التعليم من الناحية الاستثمارية بلا قيمة أو بقيمة بسيطة. كثيرون هم الذين تركوا المدارس من أجل العمل في المزارع والمصانع الإسرائيلية، وكثيرون هم الذين أخذوا يتشبهون باليهود نتيجة التربية الصهيونية الخبيثة التي تعرضوا لها. وجد العرب صعوبة بالاستمرار في الدراسة بسبب ثقل الأعباء الاقتصادية وبسبب صعوبة الالتحاق بالجامعات والحصول على وظائف فيما بعد.

خامسا: إلهاء الناس بقضايا اجتماعية تقليدية تضر ولا تنفع. انشغل الناس كثيرا بقضايا الأعراس المكلفة وأخذوا يتبارون في البذخ والحفلات المجنونة وفي جمع ما يسمى بالنقوط. أصبحت المناسبات مصدر إلهاء وعبئا اقتصاديا كبيرا يقود إلى الأنين أو إلى الاستدانة من المصارف الإسرائيلية، ويقود أيضا إلى تجاهل القضايا السياسية والاجتماعية العامة. وقد ظهر لدى عدد من الفئات استهتار كبير في القضايا العامة بخاصة قضايا الوجود العربي وحقوق الناس.

سادسا: بثت إسرائيل المفاسد الاجتماعية خاصة في صفوف الشباب مثل تعاطي المخدرات والكحول وارتياد بيوت الدعارة اليهودية وذلك لإشغالهم عن تنمية شخصياتهم وعن الاهتمام بقضايا شعبهم وأمتهم.

سابعا: حرمت القرى والمدن العربية من ميزانيات التطوير إلا من النزر اليسير. بعد جهد جهيد بدأت التجمعات العربية بالحصول على بعض الأموال من أجل تطوير شوارعها والخدمات العامة وبناء مراكز جماهيرية اجتماعية ورياضية، وما يزال النقص يعرقل العديد من المشاريع الحيوية.

الصحوة العربية

استطاعت إسرائيل أن تمرر سياساتها التجهيلية والقمعية بكفاءة حتى بداية السبعينيات. أخذ العرب يفيقون تدريجيا من هول الإجراءات الصهيونية وما تسببه من إرهاب وخوف، وأخذوا يبادرون نحو تحدي السياسات المختلفة من خلال إجراءات سلمية تستند أساسا على النشاطين القانوني والسياسي. أخذوا يلجئون إلى وسائل الإعلام لفضح السياسة الصهيونية وإلى المحاكم بخاصة المحكمة العليا الإسرائيلية لمنع الحكومة من تنفيذ بعض الخطوات أو إجبارها على التنفيذ. ثم أخذوا يركزون على بناء التجمعات السياسية والاجتماعية. هذا علما أن المثقفين العرب كانوا قد تزايدوا في تلك الفترة مما سهّل عملية الانتقال نحو العمل المنظم.

اقتصر النشاط السياسي بداية على الحزب الشيوعي الذي سد فراغا كبيرا وخدم الجمهور العربي، وعلى بعض المتنفذين اجتماعيا والذين كانوا مرتبطين بعجلة السياسة الإسرائيلية. مع السبعينيات، أخذت تظهر تجمعات جديدة نضجت في الثمانينيات إلى أحزاب. ظهرت حركة أبناء البلد التي رفضت الاعتراف بإسرائيل وخوض الانتخابات للكنيست على اعتبار أنها مؤسسة صهيونية.

وظهرت حركة المبادرة الدرزية التي أخذت على عاتقها النضال ضد الخدمة الإجبارية المفروضة على الدروز والعودة إلى الحضن العربي الأوسع. ثم ظهرت أحزاب وحركات متعددة منها الحزب الديمقراطي العربي والجبهة التقدمية؛ وتطورت الحركة الإسلامية بصورة كبيرة.

يركز العرب داخل المحتل/48 الآن على القضايا التالية:

أ- المساواة بين العرب واليهود وإنهاء حالات التمييز العرقي التي يعاني منها العرب.
ب- التعامل مع العرب على أنهم قومية قائمة بحد ذاتها ومتميزة عن اليهود، مع ما يتبع ذلك من امتيازات.
ت- احترام حقوق العرب في ملكية الأرض والبناء والتوسع العمراني، واحترام المقدسات العربية بما فيها المساجد القديمة والمقابر.
ث- إعادة المهجرين إلى قراهم مثل أهالي قريتي إقرث وكفر برعم.
ج- الاعتراف بالقرى العربية غير المعترف بها حتى الآن بخاصة في الجليل والنقب.
ح- توفير الميزانيات الملائمة للتطوير في القرى والمدن العربية.
خ- الدفاع عن حقوق الفلسطينيين في الضفة والقطاع، والعمل على إنهاء الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة.

لكن العرب ما زالوا يعانون من الانقسامات التقليدية وتعدد الأحزاب بما لا يتلاءم مع عددهم. المشاكل الاجتماعية مثل الخصومات القبلية والمنافسات الشخصية تعكس نفسها على التركيبة الحزبية وتعرقل في كثير من الأحيان العمل المشترك من أجل الصالح العام.

الأرض المحتلة/67

طرحت إسرائيل منذ العام 1967 عدم رغبتها بحكم السكان في الوسط الشرقي وساحل غزة، وأبدت استعدادها للجلوس على طاولة المفاوضات مع أي طرف عربي يرغب في إدارة شؤون السكان. لكنها أرادت أن تحتفظ بالأرض بعد أن تكون قد خصصت حصة للفلسطينيين لاستيعاب التزايد السكاني. ولهذا وجهت سياساتها بطريقة تهوّد بها الأرض وتحول دون قيام السكان بثورة. تركزت إجراءاتها بصورة رئيسة على الإجراءات التالية:

أولا: بدأت إسرائيل منذ بداية الاحتلال على اتباع خطوات استيطانية وعسكرية من شأنها ضمان بقاء عدد من المناطق في الضفة الغربية تحت الهيمنة الإسرائيلية حتى في حال قيام حكم ذاتي للسكان. وهذه المناطق هي القدس واللطرون الواقعة شمال غرب القدس والخليل القديمة والأغوار. اندرجت القدس والخليل تحت مظلة القدسية وأنه لا يجوز التفريط بهما دينيا، واندرجت اللطرون والأغوار تحت حجة الأمن على اعتبار أنهما منطقتين استراتيجيتين.

ثانيا: استولت إسرائيل على أراضي الدولة والتي تبلغ حوالي 50% من مساحة الضفة الغربية وبدأت بمصادرة الأراضي في الضفة والقطاع من أجل إقامة المعسكرات والمستعمرات. وعملت أيضا على شراء بعض الأراضي ووجدت من يبيع على الرغم من أنهم قلة من الناس. صادرت

الكثير من الأراضي في منطقة الأغوار والقدس والخليل وفي المنطقة بين خـان يـونس ورفـح والمعروفة بقطيف.

ثالثا: اتباع سياسة اقتصادية تكرس الهيمنة الاقتصادية الإسرائيلية والتبعية الفلسـطينية للاقتصـاد الإسرائيلي وذلك باتخاذ الخطوات التالية:

أ- فتح باب العمل أمام الفلسطينيين في المزارع والمصـانع الإسـرائيلية بهـدف تحويـل الفلسطينيين إلى أُجراء في وطنهم مما يحول دون تطوير اقتصاد فلسطيني خاص. ربطت إسرائيل من خلال هذا دخول عشـرات آلاف العـائلات الفلسـطينية بعجلـة الاقتصـاد الإسرائيلي. وكان من الملاحظ أن دخل العامل من عمله بإسرائيل أعلى بكثير مما يمكـن أن تدره عليه أرضه أو عمله داخل الضفة والقطاع.

ب- ربط التجارة الفلسطينية بالتجارة الإسرائيلية وقطعها مع الدول العربية بحيث تصبح آلاف إضافية من العائلات معتمدة في دخلها على الاتجار مع الإسرائيليين. هـذا فضـلا عـن معامل الخياطة العديدة التي قامت في الضفة والقطاع معتمدة على طلبات المحال التجارية الإسرائيلية. أي أنه ظهر في الضفة والقطاع عمالة منتجة لصالح الاقتصاد الإسرائيلي.

ت- السيطرة على مصادر المياه بهدف الحد من التوسع الزراعي الفلسطيني. منعت إسـرائيل الفلسطينيين من حفر آبار أرتوازية للري، وحفرت هي آبارا أكثـر عمقـا مـن الآبـار الفلسطينية بخاصة في منطقة الأغوار من أجل تجفيف الآبار الفلسـطينية التـي كانـت موجودة قبل عام 1967، وفعلا جففتها إلا أنها أعطت المزارعين الفلسطينيين كمية ميـاه تساوي الكمية التي كانوا يستهلكونها للزراعة ذات المساحة من الأرض. لكـن إسـرائيل سمحت في بعض الأحيان لحفر آبار بغرض الشرب فقط، وزودت بعض القـرى بميـاه للشرب من آبار تم حفرها في أراض تابعة لهذه القرى أو اسـتعملت أراضـيها لمـرور مواسير المياه.

ث- منع إقامة صناعات فلسطينية متطورة ذات تقنية عالية مثل صناعة الإسمنت وذلك للإبقاء على الأرض المحتلة سوقا للصناعات الإسـرائيلية. ومـن الجـدير ذكـره أن الأرض المحتلة/67 بقيت المستورد الثاني من إسرائيل بعد الولايات المتحدة.

ج- منع التطوير السياحي في المواقع التي تجذب السياح وذلك لإبقاء العنصر الأجنبي بعيـدا عن الاحتكاك مع الفلسطينيين ولمنع رفع الدخول المادية.

إجمالا، عملت إسرائيل على صنع حالة اقتصادية فلسطينية تابعة للاقتصاد الإسـرائيلي إنمـا ضمن إبقاء الفلسطينيين فوق خط الجوع وتحت خط الشبع. لم تسمح إسرائيل بتاتا أن ينخفض الدخل الفلسطيني إلى حد الجوع مخافة قيام ثورة الجوع، ولم تسمح ببحبوحة اقتصادية تلغـي الفقر مخافة ثورة احترام الذات. فكلما ارتفع الدخل واقترب من خط البحبوحة كانـت تعمـد إسرائيل إلى خفضه من خلال تقليص حجم العمالة في مصانعها ومزارعهـا أو مـن خـلال خفض التحويلات الخارجية ومنع مساعدات الدول العربية ومنظمة التحريـر مـن الـدخول. وكلما اقترب الوضع من خط الجوع كانت تعمل على السماح للأموال القادمة مـن الخـارج بالدخول أو ترفع من نسبة العمل داخل منشآتها. لقد أبقت على الشعب الفلسـطيني متأرجحـا اقتصاديا بين صعود وهبوط ضمن خانة محصورة بين أرضية وسقف.

رابعا: عملت إسرائيل على هدم النسيج الاجتماعي الفلسطيني من خلال إجراءات من أبرزها:

أ- استقطاب العملاء ومنحهم وضعا اجتماعيا جديدا يتحدى الأطر الاجتماعية السائدة. من هؤلاء العملاء من عمل سرا لأسباب تتعلق بالأمن الإسرائيلي ومنهم من عمل علنا. انقسم العلنيون إلى قسمين: قسم الجواسيس وكتبة التقارير للمخابرات والأجهزة الأمنية الإسرائيلية وهم في الغالب من الفئات الاجتماعية المسحوقة أو منخفضة الدخول المادية، وقسم العملاء ذوي الجذور العائلية المتنفذة اجتماعيا واقتصاديا والذين احتفظوا بعلاقات ودية مع إسرائيل وعملوا على تنفيذ سياساتها الاقتصادية والسياسية.

ب- عملت على نشر المخدرات والدعارة في صفوف الشباب لما للمفاسد الاجتماعية من دور في التأثير السلبي على القضية الوطنية.

ت- عملت على ترسيخ الأنماط التقليدية للبناء الاجتماعي من ناحية ترسيخ العائلية والقبلية، وحاولت زيادة حدة الصراع العائلي في القرى والمدن.

خامسا: الاستيطان. منذ اللحظة الأولى للاحتلال بدأت إسرائيل ببناء المستوطنات بخاصة في المناطق المقدسة جدا بالنسبة لليهود في القدس والخليل وفي المناطق الجغرافية الاستراتيجية. ركزت إسرائيل على القدس واستمرت في زيادة المساحة الخاضعة للبلدية بهدف البناء الاستيطاني وضم المزيد من أراضي الضفة للمدينة. بلغت مساحة المدينة حوالي 108 كم2 وهي مرشحة للزيادة، وتمت محاصرة الأحياء العربية بأطواق من المستوطنات. تبين الخريطة رقم (14) الاستيطان في المدينة. امتد الاستيطان إلى الخليل وبنيت عدة مستوطنات بمحاذاة البلدة القديمة من الشرق.

بنيت مستعمرات كثيرة في الأغوار وفي منطقة اللطرون. وقد ازداد الاستيطان حدة مع صعود الليكود إلى السلطة عام 1976. حصر حزب العمل أعماله الاستيطانية في مناطق محددة، إلا أن الليكود أصر على أن الضفةوالقطاع جزء من أرض إسرائيل ويجب استيطانها جميعا. باستثناء بعض المناطق الجغرافية الصغيرة التي اعتبرها الليكود مناطق سكنية فلسطينية، اعتبر كل المناطق مناطق استيطان خاصة رؤوس الجبال. امتد الاستيطان إلى أن وصل عدد المستوطنات حوالي 230 في الضفة والقطاع. توضح الخريطة رقم (15) هذا المد الاستيطاني.

عملت إسرائيل من خلال الاستيطان على صنع مجتمعين متمايزين في الوسط الشرقي وساحل غزة: مجتمع فلسطيني محاصر بالطرق الالتفافية والمستوطنات وترتبط تجمعاته السكانية بشبكة طرق قديمة وتغذيه خدمات غير متطورة؛ ومجتمع يهودي يتمتع بخدمات حديثة وبشبكة مواصلات متطورة تربط المستوطنات بعضها ببعض وتربطها جميعها بإسرائيل بطرقة انسيابية بحيث لا يشعر المستوطن أنه منفصل أو في بلاد غريبة. يتمتع المستوطنون بقاعدة اقتصادية زراعية وصناعية حديثة توفر عيشا مريحا، فضلا عن التحاق العديد من المستوطنين بوظائف رسمية وغير رسمية داخل إسرائيل. أقامت إسرائيل المصانع المتنوعة في المستوطنات ومشاريع زراعية ضخمة مثل بساتين العنب والتمور والموز، وذلك على حساب المياه العربية.

سادسا: القمع والتنكيل. لاحقت إسرائيل الناس في مجالسهم وبيوتهم ومناقشاتهم وحاولت إلغاء كل ما هو فلسطيني في نفوسهم والقضاء على انتماءاتهم. اتبعت سياسة التجهيل في مناهج المدرسة

ولاحقت الجامعات ورياض الأطفال والتوجيه السياسي والوطني الفصـائلي والشـعبي. أرعبـت الناس وخوفتهم ليهتموا فقط بشؤونهم الخاصة ولقمة الخبز، لتحولهم إلى مجرد بهـائم لا يتقنـون سوى فن تحضير الطعام. وقد كانت شديدة جدا على النشطاء العسكريين والسياسيين من مختلـف الفصائل ومن منظمة التحرير من أجل أن تترك الناس بلا قيادة. فتحت السجون ومارست التعذيب بكافة أشكاله والقتل والتدمير والتخريب وهدم البيوت. ظنت أن كل هذه الأساليب كانـت بفائـدة، لكنها لم تعمل إلا على تأليب الناس وحشد النفوس من أجل المزيد من العمل. ولهذا لـم تحصـد إسرائيل عبر الزمن الأمن الذي تريد، وإنما حصدت المزيد من الشقاء والإرباك والخوف.

من ضمن أهداف هذه الإجراءات كان دفع الناس إلى الهجرة من البلاد، لكن قلة من الناس تركوا بلا عودة. تعتبر هذه القلة نجاحا للسياسة الإسرائيلية لكنها بقيت محدودة ولم تؤثر علـى الوضـع العام في البلاد.